﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

بعد أن أخبرنا الحق سبحانه وتعالى . أنه خلق جميع ما فى الكون . أراد أن يخبرنا عمن خلقه لعمارة هذا الكون . فكأن القصة التى بدأ الله سبحانه وتعالى بها قصص القرآن كانت هى قصة آدم أول الخلق . ولقد وردت هذه القصة فى القرآن الكريم كثيرا لتدلنا لماذا أخبرنا الحق سبحانه وتعالى بهذه القصة ؟ وجاءت لتدلنا أيضا على صدق البلاغ عن الله . واقرأ قوله تعالى :

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الكهف)

كلمة الحق التى جاءت هنا لتدلنا على أن هناك قصصا . ولكن بغير حق . والله سبحانه وتعالى أراد أن يخرج قصصه عن دائرة القصص التى يتداولها الناس أو قصص التاريخ لإمكان مخالفتها الواقع وتأتى بغير حق . وهناك قصص تروى فى الدنيا ولا واقع لها ، بل هى من قبيل الخيال .

وكلمة قصة . مأخوذة من قص الأثر . بمعنى أن يتبع قصاص الأثر فى الصحراء الآثار التى يشاهدها على الرمال حتى يصل الى مراده . عندما يصل الى نهاية الأثر . . ومادمنا قد عرفنا ان الله يقص الحق . نعرف أن قصص القرآن الكريم كلها أحداث وقعت فعلا . ولكل قصة فى القرآن عبرة . او شىء مهم يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا اليه . فمرة تكون القصة لتثبيت النبى صلى الله عليه وسلم وتثبيت

المؤمنين : واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة هود)

فكل قصة تثبت فؤاد الرسول والمؤمنين فى المواقف التى تزلزلهم فيها الأحداث . وقصص القرآن ليست لقتل الوقت . ولكن الهدف الأسمى للقصة هو تثبيت ونفع حركة الحياة الايمانية . ولو نظرنا إلى قصص القرآن الكريم نجد أنها تتحدث عن أشياء مضت وأصبحت تاريخا . والتاريخ يربط الأحداث بأزمانها . وقد يكون التاريخ لشخص لا لحدث . ولكن الشخص حدث من أحداث الدنيا . ولو قرأت تاريخ كل حدث لوجدت أنه يعبر عن وجهة نظر راويه . فكل قصص التاريخ كتبت من وجهات نظر من رووها . ولذلك . فالقصة الواحدة تختلف باختلاف الراوى .

ولكن قصص القرآن الكريم. هو القصص الحق . . والعبرة فى قصص القرآن الكريم أنها تنقل لنا أحداثا فى التاريخ . تتكرر على مر الزمن . ففرعون مثلا هو كل حاكم يريد أن يُعْبَدَ فى الأرض . وأهل الكهف مثلا هى قصة كل فئة مؤمنة هربت من طغيان الكفر وانعزلت لتعبد الله . وقصة يوسف عليه السلام هى قصة كل اخوة نزغ الشيطان بينهم فجعلهم يحقدون على بعضهم . وقصة ذى القرنين هى قصة كل حاكم مصلح أعطاه الله سبحانه الأسباب فى الدنيا ومكنه فى الأرض . فعمل بمنهج الله وبما يرضى الله . وقصة صالح هى قصة كل قوم طلبوا معجزة من الله . فحققها لهم فكفروا بها . وقصة شعيب عليه السلام .. هى قصة كل قوم سرقوا فى الميزان والمكيال .

وهكذا كل قصص القرآن . قصص تتكرر فى كل زمان . حتى فى الوقت الذى نعيش فيه تجد فيه أكثر من فرعون . وأكثر من أهل كهف يفرون بدينهم . وأكثر من قارون يعبد المال والذهب . . ويحسب أنه استغنى عن الله . ولذلك جاءت شخصيات قصص القرآن مجهلة الا قصة واحدة هى قصة عيسى بن مريم ومريم ابنة عمران . لماذا ؟ لأنها معجزة لن تتكرر . ولذلك عرفها الله لنا فقال « مريم ابنة عمران » وقال « عيسى بن مريم » حتى لا يلتبس الأمر . وتدعى أى امرأة انها حملت

بدون رجل . مثل مريم . نقول : لا . معجزة مريم لن تتكرر . ولذلك حددها الله تعالى بالاسم . فقال : عيسى بن مريم .ومريم ابنة عمران . . اما باقى قصص القرآن الكريم فقد جاءت مجهلة . فلم يقل لنا الله تعالى من هو فرعون موسى.ولا من هم أهل الكهف ولا من هو ذو القرنين ولا من هو صاحب الجنتين . الى آخر ما جاء فى القرآن الكريم . لانه ليس المقصود بهذه القصص شخصا بعينه . لا تتكرر القصة مع غيره ، وبعض الناس يشغلون أنفسهم بمن هو فرعون موسى ؟ ومن هو ذو القرنين . . . الخ نقول لهم لن تصلوا الى شيء لأن الله سبحانه وتعالى قد روى لنا القصة دون توضيح للأشخاص . لنعرف أنه ليس المقصود شخصا بعينه . ولكن المقصود هو الحكمة من القصة .

والقصص فى القرآن لا ترد مكررة . وقد يأتى بعض منها فى آيات . وبعض منها فى آيات أخرى . ولكن اللقطة مختلفة . تعطينا فى كل آية معلومة جديدة . بحيث انك اذا جمعت كل الآيات التى ذكرت فى القرآن الكريم . تجد أمامك قصة كاملة متكاملة . كل آية تضيف شيئا جديدا .

وأكبر القصص فى القرآن الكريم . قصة موسى عليه السلام . ويذكرنا القرآن الكريم بها دائما لأن أحداثها تعالج قصة أسوأ البشر فى التاريخ . وفى كل مناسبة يذكرنا الله بلقطة من حياة هؤلاء . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾

(الآية ٧ سورة القصص)

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ﴾

(الآيتان ٣٨ ، ٣٩ سورة طه)

والفهم السطحى يظن أن هذا تكرار ونقول لا . فقوله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم » .

هذه اللقطة تدل على ان الله سبحانه وتعالى يعد أم موسى اعدادا إيمانيا للحدث . ولكن عند وقوع الحدث تتغير القصة على نمط سريع « أن أقذفيه فى التابوت » فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل » . كلام يناسب لحظة وقوع الحدث . . فالآية الأولى .. بينت لنا أن أم موسى أرضعته قبل أن تضعه فى التابوت . وأنها ستلقيه فى اليم عندما يحدث خطر وتخاف عليه من القتل . وفيه تطمين لها . الا تخاف ولا تحزن . لأن الله منجيه . وفيها بشارتان : أن الله سيرده لأمه . وأن الله قد اختاره رسولاً .

نأتى الى الآية الثانية التى تكمل لنا هذه اللقطة فتقول « اقذفيه فى التابوت » هنا نعرف ان أم موسى ستلقيه فى تابوت ، وهو ما لم يذكر فى الآية السابقة . ثم بعد ذلك نعلم أن الله سبحانه وتعالى أصدر أمره الى الماء أن يلقى التابوت الى الساحل . وهذا ما لم يرد فى الآية السابقة . ونعرف ايضا ان الذى سيأخذه وهو فرعون . ستكون بينهما عداوة متبادلة . . وهكذا نرى أن آيتى القصة . يكمل بعضهما بعضا . وليس هناك تكرار . والله سبحانه وتعالى فى الآية الثانية يريد أن يثبت أنه ستكون هناك عداوة متبادلة بين موسى وفرعون . . كما أثبتت عداوة فرعون لله جل جلاله ولموسى ، فقال : « عدو لى وعدو له » ولكن العداوة لا تستقر الا اذا كانت متبادلة . فتأتى آية ثالثة لتكمل الصورة .. فى قوله تعالى :

﴿ فَالْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾

(من الآية ٨ سورة القصص)

وهكذا بينت لنا الآية الكريمة كيف أن العداوة بين فرعون وموسى ستستقر حتى يقضى على فرعون . لأنه اذا كان انسان عدوا لك . وانت تقابل العداوة بالاحسان . تخمد العداوة بعد قليل . اذن هذه الأيات ليست تكرارا ولكنها آيات تكمل القصة.. وتعطينا الصورة الكاملة المتكاملة .

ولكن لماذا لم تأت قصة موسى متكاملة كقصة يوسف ؟ لأن الله سبحانه وتعالى

يريد أن يثبت بها نبينا عليه الصلاة والسلام والمؤمنين . فتأتى هنا لقطة وهنا لقطة . لتؤدى ما هو مطلوب من التثبيت بما لا يخل . . لأن الآيات تعطينا القصة متكاملة .

وهكذا قصة آدم . جاءت لنا فى آيات متعددة ؛ لتعطينا فى مجموعها قصة كاملة . وفى الوقت نفسه كل آية لها حكمة يحتاج اليها التوقيت الذى نزلت فيه . . فالله سبحانه وتعالى يروى لنا بداية الخلق ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب »[1].

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعرفنا كيف بدأ الخلق . وقصة عداوة إبليس لآدم وذريته . . فتكلم الله سبحانه وتعالى عن أول البشر . عرفنا اسمه . وهو آدم عليه السلام . وتكلم عن المادة التى خلق منها . وتكلم عن المنهج الذى وضعه لآدم . وحدثنا عن النقاش الذى دار مع الملائكة . كما أخبرنا بأن آدم سيكون خليفة فى الأرض . وأنه علمه الأسماء كلها ليقود حركة حياته . وعلمنا منطق علم الأشياء . وعلم مسمياتها . وحدثنا عن الحوار الذى حدث بين ابليس أمام ربه حينما أبى السجود . وبين لنا حجة ابليس فى الامتناع عن السجود ، وخطة ابليس ومدخله الى قلوب المؤمنين بالاغواء والوسوسة وغير ذلك .

اذن فهناك اشياء كثيرة تتعرض لها قصة آدم ، ولو أن بشرا يريد أن يؤرخ لآدم ما استطاع أن يأتى بكل هذه اللقطات . ولكن الحق سبحانه وتعالى جعل كل لقطة تأتى للتثبيت .

والآية الكريمة التى نحن بصددها لم تأت فى الأعراف ولا فى الحجر ولا فى الاسراء ولا فى الكهف ولا فى طه . وبهذا نعرف أنه ليس هناك تكرار . . فالله سبحانه وتعالى أخبر ملائكته أنه جاعل فى الأرض خليفة . هنا لابد لنا من وقفة . أخلق أدم كفرد . أم خلقه الله وكل ذريته مطمورة فيه الى يوم القيامة ، اذا قرأنا القرآن الكريم نجد أن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأعراف)

(١) رواه البزار عن حذيفة بإسناد حسن .

الخطاب هنا للجمع . لآدم وذريته . فكأنه سبحانه وتعالى يشير الى أن الأصل الأول للخلق آدم ، وهو مطمور فيه صفات المخلوقين من ذريته الى أن تقوم الساعة وراثة . أى أنه ساعة خلق آدم ..كان فيه الذرات التى سيأخذ منها الخلق كله . هذا عن هذا .. حتى قيام الساعة .

ولقد قلتُ إن كل واحد منا فيه ذرة أو جزىء من آدم ، فأولاد آدم أخذوا منه والجيل الذى بعدهم أخذ من الميكروب الحي الذى أودعه آدم فى اولاده . والذين بعدهم أخذوا أيضا من الجزىء الحى الذى خلق فى الاصل مع آدم . وكذلك الذين بعدهم . والذين بعدهم . والحياة لابد أن تكون حلقة متصلة . كل منا يأخذ من الذى قبله ويعطى الذى بعده . ولو كان هناك حلقة مفقودة . لتوقفت الحياة . كأن يموت الرجل قبل أن يتزوج . فلا تكون له ذرية من بعده . تتوقف حلقة الحياة . فكون حلقة الحياة مستمرة . دليل أنها حياة متصلة . لم تتوقف . ومادامت الحياة من عهد آدم الى يومنا هذا متصلة . فلابد أن يكون فى كل منا ذرة من آدم الذى هو بداية الحياة وأصلها . وانتقلت بعده الحياة فى حلقات متصلة الى يومنا هذا وستظل الى يوم القيامة .

فأنا الآن حى . لاننى نشأت من ميكروب حى من أبى . وأبى أخذ حياته من ميكروب حى من أبيه . وهكذا حتى تصل الى آدم ، اذن فأنت مخلوق من جزىء حى فيه الحياة لم تتوقف منذ آدم الى يومنا هذا . ولو توقفت لما كان لك وجود .

اذن فحياة الذين يعيشون الآن موصولة بآدم . لم يطرأ عليها موت . والذين سيعيشون وقت قيام الساعة حياتهم أيضا موصولة بآدم أول الخلق . والحق سبحانه وتعالى . حين أمر الملائكة بالسجود لآدم . فإنهم سجدوا لآدم ولذريته الى أن تقوم الساعة . وذرية آدم كانت مطمورة فى ظهره . وشهدت الخلق الأول . اذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « لقد خلقناكم ثم صورناكم » فيه جزئية جديدة لقصة الخلق .

وقوله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة » أى أن الله سبحانه وتعالى يطلب من سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أن يقول انه عند خلق آدم . خلقه خليفة فى الارض . والكلام هنا لا يعنى أن الله سبحانه وتعالى يستشير أحدا فى الخلق . بدليل

انه قال « انى جاعل » إذن فهو أمر مفروغ منه . ولكنه اعلام للملائكة .. والله سبحانه وتعالى . عندما يحدث الملائكة عن ذلك فلأن لهم مع آدم مهمة . فهناك المدبرات أمرا . والحفظة الكرام . وغيرهم من الملائكة الذين سيكلفهم الحق سبحانه وتعالى بمهام متعددة تتصل بحياة هذا المخلوق الجديد . فكان الاعلام . لأن للملائكة عملا مع هذا الخليفة .

قد يقول بعض الناس . ان حياة الانسان على الأرض تخضع لقوانين ونواميس . نقول ما يدريك أن وراء كل ناموس ملكا ؟

ولكن هذا الخليفة سيخلف من ؟ قد يخلف بعضه بعضا . فى هذه الحالة يكون هنا اعلام من الله بأن كل انسان سيموت ويخلفه غيره . فلو كانوا جميعا سيعيشون ما خلف بعضهم بعضا . وقد يكون الانسان خليفة لجنس آخر . ولكن الله سبحانه وتعالى .. نفى أن يخلف الانسان جنسا آخر . واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ ... إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة ابراهيم)

والخلق الجديد هو من نوع الخلق نفسه الذى أهلكه الله . والله سبحانه وتعالى يخبرنا أن البشر سيخلفون بعضهم الى يوم القيامة .. فيقول جل جلاله :

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة مريم)

ولكن هذا يطلق عليه خَلْفٌ . ولا يطلق عليه خليفة . والشاعر يقول :

ذهب الذين يعاش فى اكنافهم

وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

ولكن الله جعل الملائكة يسجدون لآدم ساعة الخلق وجعل الكون مسخرا له

فكأنه خليفة الله فى أرضه . أمده بعطاء الأسباب . فخضع الكون له بإرادة الله . وليس بإرادة الانسان . والله سبحانه وتعالى يقول فى حديث قدسى : « يا بن آدم تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنى وأسد فقرك . . وإلا تفعل ملأت يدك شغلا ولم أسد فقرك » (١)

اذن كلمة خليفة . تأخذ عدة معان . .

ماذا قالت الملائكة : « قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » .

كيف عرف الملائكة ذلك ؟ لابد أن هناك حالة قبلها قاسوا عليها . أو أنهم ظنوا أن آدم سيطغى فى الأرض . ولكن كلمة سفك وكلمة دم . كيف عرفتها الملائكة وهى لم تحدث بعد ؟ لابد أنهم عرفوها من حياة سابقة . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الحجر)

فكأن الجن قد خلق قبل الانسان . وقوله تعالى : « انى أعلم ما لا تعلمون » .

معنى ذلك أن علمك أيها المخلوق مناسب لمخلوقيتك . أما علم الله سبحانه وتعالى .. فهو أزلى لانهائى . ولكن هل قال الملائكة حين أخبرهم الله بخلق آدم ذلك علنا أم أسروه فى أنفسهم ؟ سواء قالوه أم أسروه . فقد علمه الله . لأنه يعلم ما يسرون وما يعلنون . وانه يعلم السر وأخفى . فما هو السر . وما هو الأخفى من السر ؟ السر هو ما أسررته الى غيرك . فما أسر به الى غيرى . فهو السر . وما أخفيه فى صدرى ولا يطلع عليه أحد . هو أخفى من السر . فلا يقال أسررت الا اذا بحت به لغيرى . أما ما أخفيه فى صدرى . فلا يعلمه أحد الا الله . فهذا هو ما أخفى من السر .

وعندما يقول الحق سبحانه وتعالى : « إنى أعلم ما لا تعلمون » أراد أن يعطى القضية بعدها الحقيقى . وقد حكى القرآن الكريم قول الملائكة : « ونحن نسبح

---

(١) (رواه أحمد والترمذى وابن ماجه والحاكم عن أبى هريرة) .

بحمدك ونقدس لك » .

والتسبيح هو التنزيه عما لا يليق بذات المنزه . والتقديس هو التطهير . . مأخوذ من الْقَدَس وهو الدلو الذى كانوا يتطهرون به . ولذلك نحن نقول سُبّوح قُدوس . سُبّوح أى مُنزه عن كل ما لا يليق بجلاله . وقدوس . أى مُطَهَّر . . التسبيح يحتاج الى مُسبِّح . والى ما نسبحه . والملائكة قالوا : « سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا » .

وهذا تسبيح وتنزيه لله سبحانه وتعالى . . والتسبيح والتنزيه لا يكونان إلا للكمال المطلق الذى لا تشوبه أية شائبة . . والكمال المطلق هو لله سبحانه وتعالى وحده . لذلك صرف الله ألسنة خلقه عن أن يقولوا كلمة سبحانك لغير الله تعالى . فلا تسمع فى حياتك أن إنسانا قال لبشر سبحانك . وهكذا صرفت السنة الخلق عن أن تسبح لغير الله سبحانه وتعالى . وقول الملائكة : « ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » كأن نقول سبحان الله وبحمده . ومعناها تنزيه لله سبحانه وتعالى فى ذاته . . فلا تشبه بذات . وفى صفاته . فلا تشبه بصفات وفى افعاله . فلا تشبه بأفعال . . ولكن ما معنى كلمة وبحمده ؟ معناها أننا ننزهك ونحمدك . أى يارب تنزيهنا لك نعمة . ولذلك فانى أحمدك على أنك أعطيتنى القدرة لأنزهك . . والتقديس هو تطهير الله سبحانه وتعالى من كل الأغيار . ولأنك يارب قدوس طاهر . لا يليق أن يرفع اليك الا طاهر . ولا يليق أن يصدر عمن خلقته بيديك الاطاهر . .

إنه عرّفنا معنى نسبح بحمدك ونقدس لك . ثم أراد الله بحكمته أن يرد على الملائكة فقال : « انى أعلم مالا تعلمون » ولم يطلقها هكذا . ولكنه سبحانه أتى بالقضية التى تؤكد صدق الواقع . .



﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ٣١ ﴾

فالحق سبحانه وتعالى . رد على الملائكة بهذه الآية الكريمة . لأنه علم ادم الاسماء كلها . . وكلمة كلها تفيد الاحاطة . ومعنى الاحاطة معرفة كل شيء عن هذه الأسماء .

هنا يتبادر سؤال : هل عَلّم الله سبحانه وتعالى آدم الأسماء منذ ساعة الخلق الى قيام الساعة مادام الحق سبحانه وتعالى يقول كلها . فما هو حكم تلك الأسماء التى هى لمخترعات ستأتى بعد خلق آدم بقرون طويلة ؟

نقول إن الله سبحانه وتعالى . حين علم آدم الأسماء وميزه على الملائكة يكون قد أعطى ذلك الأدنى عنصرا ميزه عن المخلوق من عنصر أعلى . فآدم مخلوق من طين . والملائكة مخلوقون من نور . وقدرات البشر لا تستطيع أن تعطى الأدنى شيئا أكثر من الأعلى . ولكن الله سبحانه وتعالى وحده هو الذى يعطى ذلك ليذكرنا أن ما نأخذه ليس بقدراتنا ولكن بقدرته هو سبحانه . ولذلك تجد سليمان وهو ملك ونبى .. أعطاه الله تعالى ملكا لا ينبغى لأحد من بعده . وميزه عن خلقه . يأتى الهدهد ليقول لسليمان : « احطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين » .

كيف يحيط الهدهد وهو طائر ضعيف محدود بما لم يحط به سليمان وهو الملك النبى الذى حكم الانس والجن ؟ لأن الله سبحانه وتعالى .. يكره الغرور من خلقه . ولذلك يأتى بآية تميز الأدنى عن الأعلى ليعلموا جميعا أن كل قدراتهم ليست بذاتهم . وانما هى من الله . فيأتى موسى وهو الرسول والنبى .. فيتعلم من الخضر وهو العبد الصالح ما لم يكن يعلمه .

وقد خلق الله سبحانه المسميات وان كنا لا نعرف وجودها وجعل الملائكة تتلقى أسماء هذه المسميات من آدم . وان البعض يتساءل عن وسيلة تعليم الخالق الأكرم لآدم عليه السلام . وتعليم الخالق يختلف عن تعليم الخلق . لأن الخالق يعلم الهاما . يقذف فى قلب آدم أسماء المسميات كلها لكل ما فى الكون من أسماء المخلوقات . .

اذن فالمشهد الأول . لآدم مع الملائكة . كان قد تم ايجاد كل المسميات وألهمها الله لآدم . بدليل أن الملائكة لم تتعرف على هذه المسميات . بينما عرفها آدم . وهنا لابد لنا من وقفة . ان الكلام هو ناتج السمع . واللغة ناتج البيئة ، والله سبحانه وتعالى علم آدم الأسماء . وهذا العلم لا يمكن أن يأتى الا اذا كان آدم قد سمع من الله سبحانه وتعالى .. ثم نطق . فأنت اذا أتيت بطفل عربى .. وتركته فى لندن مثلا .. فتراه يتكلم الانجليزية بطلاقة .. ولا يفهم كلمة واحدة من اللغة العربية . والعكس صحيح . اذا أتيت بطفل انجليزى . وتركته فى بلد عربى . يتكلم العربية .. ولا يعلم شيئا عن الانجليزية . اذن فاللغة ليست وراثة ولا جنسا ولا بيئة . ولكنها محاكاة يسمعها الانسان فينطق بها . واذا لم يسمع الانسان شيئا وكان أصم فانه لا يستطيع النطق بحرف واحد . فاذا كان آدم قد نطق بهذه الأسماء . فلابد أنه سمع من الله سبحانه وتعالى . .

والعجيب ان الطريقة التى علم الله سبحانه وتعالى آدم بها . هى الطريقة نفسها التى تتبعها البشرية الى يومنا هذا . فأنت لا تعلم الطفل بأن تقص عليه الأفعال . ولكن لابد أن يبدأ تعليمه بالأسماء والمسميات . تقول له : هذا كوب . وهذا جبل وهذا بحر . وهذه شمس . وهذا قمر . وبعد أن يتعلم المسميات . يستطيع أن يعرف الأفعال . ويتقدم فى التعليم بعد ذلك . .

وهكذا نتعرف على النشأة الاولى للكلام . وطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى علمت آدم الأسماء .

وهنا نتوقف لنجيب عن سؤالين : الأول : اذا كان الله سبحانه وتعالى قد علم آدم الأسماء كلها . فهل كان فيها أسماء ما سيستجد من مخترعات فى العالم ؟ نقول : إنه حتى لو تعلم آدم الأسماء التى يحتاج اليها فى أولويات الوجود

ويستخدمها فى متطلبات حياته على الأرض . فاذا جد جديد ، فإن أولاد آدم يستخدمون هذه الأسماء من المقدمات والأسماء التى تعلموها . فما يجد فى الوجود من أسماء . تدخل على اللغة . لم تأت من فراغ . وانما جاءت من اللغة التى تنطق بها وتكتب بها .

كذلك كل شىء فى هذا الكون . لو أعدته الأن الى أصله . تجد أن أصله من الله . فلو أعدت البشرية الى أصلها لابد أن تصل الى أن الانسان الاول خلقه الله سبحانه وتعالى . ولو اعدت العلم الى أصله . وكل علم يحتاج الى معلم . نقول لك.. من الذى علم المعلم الأول . أليس من البديهى أن العلم بدأ بمعلم علمه الله سبحانه وتعالى . وكان هذا هو المعلم الأول . . اذن فالذى علم الأسماء لأدم هو الله سبحانه وتعالى . وهو علمها لاولاده . وأولاده علموها لأولادهم وهكذا . .

يأتى السؤال الثانى : اذا كان الله هو المعلم للكلام . فلماذا اختلفت اللغات على الأرض وأصبح هناك ألوان من اللغات والألسنة ؟

نقول ان تنوع فترات التاريخ وانتشار الانسان على الارض جعل كل مجموعة من البشر تقترب من بعضها لتكون لها لغة واحدة . وكل لغة موجودة مأخوذة من لغة قديمة . فالفرنسية والانجليزية والايطالية . مأخوذة من اللاتينية . والعبرية ،السريالية لها علاقة باللغة العربية . واللهجات التى يتكلم بها العالم العربى صاحب اللغة الواحدة ، تختلف . . حتى أن لهجة الجزائر او المغرب مثلا . تجدها مختلفة عن اللهجة المصرية أو السودانية . ولكننا إذا تكلمنا باللغة العربية فَهِمَ بعضنا بعضا ، ولغة هؤلاء جميعا فى الأصل هى لغة القران . وهى العربية . ولكن فى فترات الوهن التاريخى الذى مر على العرب انعزلت البلاد العربية بعضها عن بعض ومضى كل مجتمع يأخذ اللغة كمظهر اجتماعى . فيسقط التفاهم بين اللهجات المختلفة .

وهكذا علم الله سبحانه وتعالى آدم الأسماء كلها . ثم عرضهم على الملائكة وقال لهم « أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين » ؟ أى أن الله سبحانه وتعالى كرم آدم فى العلم . وأعطاه علما لم يعطه للملائكة . ثم جعل آدم هو الذى يعلمهم أسماء مسميات لم يعرفوها . وهذا دليل على طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى . يفعل

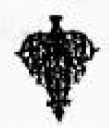
ما يشاء فى كونه . وكما قلنا ان تمييز الأدنى عن الأعلى . لا يتم الا بفعل الله وحده .

ولكى نقرب هذا الى العقول : هب ان انسانا ضعيفا يريد أن يحمل حملا ثقيلا . . لا يقدر . واذا كان هناك انسان قوى يعينه فانه لا يستطيع أن يعطيه من قوته ليحمل هذا الحمل . ولكن يعينه بأن يحمل عنه . أما الذى يستطيع أن يجعل هذا الضعيف قويا يمكنه أن يحمل هذا الحمل الثقيل فهو الله سبحانه وتعالى . . فالانسان لا يستطيع أن يعطى انسانا آخر من قوته . ولكن الله وحده هو القادر على أن يجعل الضعيف قويا والقوى ضعيفا .

وقوله تعالى : « ان كنتم صادقين » وهل يكذب الملائكة ؟ ان الملائكة خلق من نور يسبحون الله . ويفعلون ما يؤمرون . . نقول ان قوله تعالى « ان كنتم صادقين » فيما قستم عليه الأحداث . أو فيما قلتموه ضربا بالغيب .

ولو أن الملائكة قاسوا حكمهم على حكم جنس آخر كان فى الأرض كالجن مثلا الذين خلقوا قبل الانسان . . يقول الحق تعالى انكم أخطأتم فى قياسكم هذا . أو ان كنتم صادقين فيما تنبأتم به من غيب ؛ فلا يعلم الغيب الا الله تعالى . فالقياسان جانبهما التوفيق .

وليس هذا طعنا فى الملائكة . ولكنه تصحيح لهم . وتعريف لنا بأن الملائكة لا يعلمون الغيب . ولذلك فهم حينما قاسوا أو حكموا على غيب .. جانبهم التوفيق . لأن الله وحده هو علام الغيوب . والذى دفع الملائكة الى أن يقولوا أو يبطنوا هذا الكلام هو حبهم الشديد لله تعالى . . وكراهيتهم لإفساد فى كونه .



﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾

هذه الآية الكريمة . توضح لنا ان الله سبحانه وتعالى هو المعلم الأول فى الكون . واذا كان لكل علم معلم . فإن المعلم الأول لابد أن يكون هو الله سبحانه وتعالى . واذا كنا نشاهد فى عصرنا ألوانا من العلوم . . فهذه العلوم من تفاعل العقل الذى وهبه الله تعالى للانسان . من المواد التى وضعها الله تعالى فى الكون . بالمنطق والعلم الذى علمه الله للانسان .

ان كل الاختراعات والابتكارات أخذت وجودها من مقدمات كانت سابقة عليها . فالماء مثلا كان موجودا منذ الازل . والشمس كطاقة تبخر الماء لتصنع منه سحابا . فاذا استخدم الانسان الطاقة الحرارية فى تبخير الماء واستخدم البخار كطاقة ، فهناك قفزة حضارية فى العلوم اسمها عصر البخار ، وهو الذى كانت تسير به القطارات والآلات فى المصانع . وغير ذلك .

إن هذا التقدم فى العلم ، إنما هو نابع من وجود العلم والطاقة ، وزاد عليهما القدرة العقلية للانسان الممنوحة له من الخالق ، التى جعلته يفكر فى استخدام الطاقة الناتجة من البخار ، فاذا توصل الانسان لمراقبة شجرة ساقطة وهى تتدحرج إلى الأرض لأن جذعها اسطوانى . فانه أخذ من نظام هذه الشجرة ما يصنع منه العجلة التى كانت تطورا هاما فى تاريخ العلم . .

اذن فساق الشجرة الاسطوانية هو الذى أعطى للانسان فكرة العجلة ، فاذا طور الانسان استخدام البخار وصنع قطارا يسير بالبخار . فهذا التطوير هو ابن للعلم

السابق عن قدرة الطاقة الناتجة عن تبخير الماء . وكيفية صناعة العجلة . . فكل علم نابع من علم سابق . . يترابط مع امكانات وهبها الله سبحانه وتعالى للانسان . ولذلك عندما جاء الاسلام ليعرض العلم التجريبي أو المادى . جاء ليلفتنا الى آيات الخالق فى الكون . وطلب منا أن نتأمل فى هذه الآيات . . ونعمل فيها العقل والادراك . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة يوسف)

وهكذا يلفتنا الله جل جلاله الى آياته التى فى السموات والارض لنعمل فيها العقل والادراك ، لتستنبط منها ما يعطينا الحضارة . . ان القرآن يطالبنا بأن نواصل العلم الذى علمه الله لآدم . واذا كان تاريخ العلوم يحمل لنا أخبارا عن قوم لم يكونوا مؤمنين ومع هذا سبقونا فى العلم والاستنباط ، فكان الواجب علينا نحن المؤمنين أن نتأمل آيات الله تعالى فى الأرض . فنيوتن ـ الذى لاحظ قوة جاذبية الأرض ـ كان يراقب تفاحة تسقط من أعلى الشجرة وتصطدم بالأرض . فتوصل الى قانون الجاذبية .

واذا أردنا أن نأخذ لمحة من علم الله الذى علمه لنا . فيكفى أن ننظر الى النواة . ففى هذه النواة الصغيرة نخلة كاملة . متى وضعت النواة فى الأرض . نمت النخلة . وأصبح لها وجود .

ولكى نوضح هذا كله نقول إن كل علم مبنى على نظريات . النظرية الاولى تؤدى الى الثانية . والثانية تؤدى الى الثالثة . وهكذا . . ولكن بداية كل هذه العلوم لم تبدأ بنظرية ، ولكنها بدأت بما يسمونه البديهيات . أى الأشياء التى لا تحتاج الى دليل . إنها الاشياء التى خلقها الله فى الكون . وعلى هذه البديهيات بنيت النظريات الواحدة بعد الأخرى . حتى اذا أردت أن تعيدها الى أصلها ، فإنك تصل فى نهاية الأمر الى أن العلم الأول من الله سبحانه وتعالى ، فالمعلم الاول علمه الله . والثمرة الأولى خلقها الله . وكل اكتشافات الانسان منذ بداية الحياة وحتى قيام الساعة موجودة بالقوة . مثل النواة التى فيها النخلة . تنتظر التأمل والعمل . لتصبح اكتشافا بالفعل . والله سبحانه وتعالى وهو المعلم الاول.. وضع فى كونه من العلم الكثير .

ويحضرنى قول الشاعر احمد شوقى حين قال :

سبحانك اللهم خير معلم علمت بالقلم القرون الأولى
أرسلت بالتوارة موسى مرشدا وابن البتول فعلم الانجيلا
وفجرت ينبوع البيان محمدا فسقى الحديث وناول التنزيلا

وكان شوقى يصوغ فى ابياته أن كل علم هو منسوب الى الله وحده . . وهكذا يتضح لنا . أن قول الملائكة : « سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم » يتضمن الاعتراف بأن العلم كله مرجعه الى الله . فالله سبحانه وتعالى هو مصدر العلم والحكمة . وقوله سبحانه وتعالى : « العليم الحكيم » العليم أى الذى يعلم كل شىء خافيا كان أو ظاهرا . والعلم كله منه . وأما الحكمة فتطلق فى الأصل على قطعة الحديد التى توضع فى فم الفرس لتلجمه حتى يمكن للراكب أن يتحكم فيه . ذلك أن الحصان حيوان مدلل شارد . يحتاج الى ترويض . وقطعة الحديد التى توضع فى فمه تجعله أكثر طاعة لصاحبه . وكأن اطلاق صفة الحكيم على الخالق سبحانه وتعالى هو أنه جل جلاله يحكم المخلوقات حتى لا تسير بغير هدى . ودون دراية .

والحكمة أن يوضع هدف لكل حركة لتنسجم الحركات بعضها مع بعض ، ويصير الكون محكوما بالحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . والحكيم العليم . هو الذى يضع لكل كائن إطاره وحدوده . والحكمة هى أن يؤدى كل شىء ما هو مطلوب منه ببراعة . والحكمة فى الفقه هى أن تستنبط الحكم السليم . والحكمة فى الشعر أن تزن الكلمات على المفاعيل . والحكمة فى الطب أن تعرف تشخيص المرض والدواء الذى يعالجه . والحكمة فى الهندسة أن تصمم المستشفى طبقا لإحتياجات المريض والطبيب وأجهزة العلاج ومخازن الأدوية وغير ذلك . أو فى تصميم المنزل للسكن المريح . وحكمة بناء منزل مثلا تختلف عن حكمة بناء قصر أو مكان للعمل .

والكون كله مخلوق من قبل حكيم عليم . وضع الخالق سبحانه وتعالى فيه كل شىء فى موضعه ليؤدى مهمته . ووصف الله تعالى بأنه حكيم يتطلب أن يكون عليما . لأن علمه هو الذى يجعله يصنع كل شىء بحكمة . وقد أعطى الله سبحانه

وتعالى لكل خلقه من العلم على قدر حاجته ، فليس من طبيعة الملائكة أن يعرفوا ماذا سيفعل ذلك الانسان الذى سيستخلفه الله فى الارض . ولكنهم موجودون لمهمة أخرى . . وميز الله الانسان بالعقل ليستكشف من آيات الله فى الكون على قدر حاجة حياته . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾

(سورة الأعلى)

إذن فكل شيء خلق بقدر . وكل مخلوق ميسر لما هداه الله له . .

﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣ ﴾

فالحق سبحانه وتعالى أراد أن يرد على ملاحظة الملائكة بالنسبة لخلق آدم وخلافته فى الأرض ، وأن الله سبحانه وتعالى فى حكمته ما يخفى عليهم . ولذلك فهم لم يدركوا هذه الحكمة . وقبل أن يخلق الله آدم ويجعله خليفة فى الأرض . . كان على علم بكل ما سيحدث من آدم وذريته حتى قيام الساعة . وبعد قيام الساعة ، أما الملائكة . فهم لم يكونوا على علم بذلك . لأن هذا ليس عملهم . وكما قلنا : كل ميسر لما خلق له . ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطى للملائكة الصورة بأنكم قد حكمتم على آدم إما من تجربة لجنس آخر عاش فى الارض ، وإما من ضرب بالغيب . والمقياسان غير صحيحين . ولذلك ميز الله سبحانه فى هذه اللحظة آدم على الملائكة فعلمه أسماء المسميات كلها ، ثم طلب من الملائكة أن يخبروه بهذه الأسماء . ولكنهم قالوا : ان العلم من الله وحده . وبما أن الله تعالى لم يعلمهم الأسماء فإنهم لا يعرفونها. فطلب الله من آدم أن يخبرهم بأسماء هذه المسميات فأخبرهم بها . ولكنه لم يخبرهم بها بذاته ولامن قانونه . ولا بعلم علمه وحده . ولكنه أخبرهم بتعليم الله سبحانه وتعالى له . وفى ذلك يقول الله تعالى :

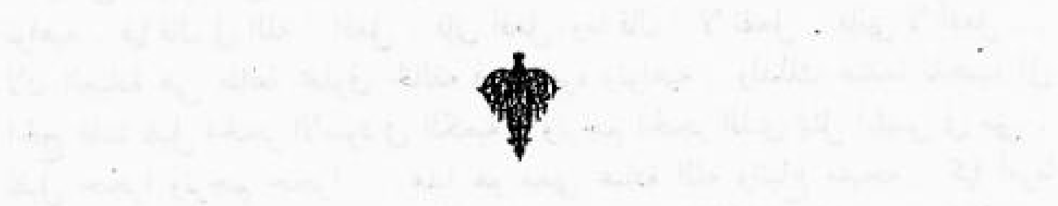
﴿ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴾

(من الآية ٧٦ سورة يوسف)

إذن فعِلْمُ آدم للأسماء كان بمشيئة الله سبحانه وتعالى . وهذه المشيئة وحدها هى التى جعلت آدم فى ذلك الوقت يعلم ما لا تعلمه الملائكة . . وهنا رد الحق سبحانه وتعالى على قول الملائكة بأن آدم سيفسد فى الأرض . فذكرهم الله تعالى بقوله :

« ألم أقل لكم أنى أعلم غيب السموات والأرض » اى ان الله سبحانه وتعالى وحده هو الذى يعلم الغيب . والغيب هنا هو الغيب المطلق . فهناك غيب نسبى . قد تسرق حافظة نقودى مثلا وأنا لا أعلم من الذى سرقها فهو غيب عنى . ولكنه معلوم للذى سرق ، وللذى سهل له طريقة السرقة بأن حرس له الطريق حتى يسرق دون أن يفاجئه أحد . وقد يكون قد صدر قرار هام بالنسبة لى كترقية أو فصل أو حكم . لم يصلنى . فأنا لا أعلمه . ولكن الذى وقع القرار أو الحكم يعلمه .

هذا الغيب النسبى . لا يعتبر غيبا . ولكن الغيب المطلق هو الذى ليس له مقدمات تنبىء عما سيحدث . . هذا الغيب الذى يفاجئك . ويفاجىء كل من حولك بلا مقدمات . . هذا الغيب لا يعلمه الا الله وحده . وقوله تعالى : « وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » . . تعطينا هنا وقفة . هل الملائكة قالوا لله سبحانه وتعالى : « اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » هل قالها الملائكة فعلا وجهرا ، أم أنهم قالوها فى أنفسهم ولم ينطقوا بها . . قوله تعالى « وما كنتم تكتمون » تعطينا إشارة الى أن الملائكة ربما قالوا هذا سرا . ولم يبدوه ، وعلى أية حال . سواء قالوه جهرا . أو قالوه سرا . فقد علمه الله . لأن الله جل جلاله .. بكل شىء محيط . ولا نريد لهذه النقطة ان تثير جدلا .. لماذا ؟ لأنه فى الحالتين .. سواء فى الجهر أو فى الكتمان .. فإن الموقف يتساوى عند علم الله سبحانه وتعالى .. فلا داعى للجدل لأنه لاخلاف .



﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

أصدر الله تعالى أمره للملائكة ليسجدوا لآدم . وهذه القضية أخذت جدلا طويلا . قال بعض الناس : كيف يسجد الملائكة لغير الله ؟ والسجود لله وحده . وقال آخرون : هل معنى سجود الملائكة لآدم أنهم عبدوه ؟ وقالت فئة أخرى : السجود لغير الله لا يجوز تحت أى ظرف من الظروف . نقول لهؤلاء : انكم لم تدركوا المعنى ، فالله سبحانه وتعالى بعد أن ميز آدم على الملائكة بعلم الأسماء . . طلب منهم أن يسجدوا لآدم ، وهنا لابد أن نعرف أن السجود لآدم . . هو إطاعة لأمر الله . . وليست عبادة لآدم . فالله سبحانه وتعالى هو الذى أمر الملائكة بالسجود . ولم يأمرهم بذلك آدم . ولا يحق له أن يأمرهم . فالأمر بالسجود هنا من الله سبحانه وتعالى ، من أطاعه كان عابدا . ومن لم يطعه كان عاصيا . ومن رد الأمر على الآمر كان كافرا .

ولكى نفهم معنى العبادة نقول : ان العبادة هى طاعة أوامر الله . واجتناب نواهيه . فما قال لى الله : افعل . فإنى أفعل . وما قال : لا تفعل . فإننى لا أفعل . . لأن العبادة هى طاعة مخلوق لخالقه فى أوامره ونواهيه . ولذلك عندما نذهب الى الحج فاننا نقبل الحجر الأسود فى الكعبة ، ونرجم الحجر الذى يمثل ابليس فى منى . نقبل حجرا ونرجم حجرا . . هذا هو معنى عبادة الله واتباع منهجه . كما أمرنا نفعل . لا شىء مقدس عندنا .. الا أمر الله ومنهجه . الملائكة هنا لم يسجدوا لآدم . ولكنهم سجدوا لأمر الله بالسجود لآدم . وفرق كبير بين السجود لشىء ، وبين السجود لأمر الله . السجود لأمر الله سبحانه وتعالى . . لا يعتبر خروجا على المنهج ، لأن الأساس هو طاعة الله . وهل سجد كل الملائكة لآدم ؟ لا . وإنما

سجد لآدم الملائكة الذين لهم مهمة معه ، وتلك المهمة قد اوضحها الله سبحانه وتعالى فى قوله :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة الانفطار)

وقوله سبحانه :

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة ق)

وقوله سبحانه :

﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ ﴾

(سورة النازعات)

اذن هناك من الملائكة من سيسجل على الانسان أعماله . وكل قول يقوله وكل فعل يفعله . بل ويكتبون هذه الافعال . ومنهم من يحفظه من الشياطين ، ومنهم من ينفذ أقدار الله فى الأرض . هؤلاء جميعا لهم مهمة مع الانسان . ولكن الأمر بالسجود لم يشمل اولئك الملائكة العالين من حملة العرش وحراس السماء وغيرهم ممن ليست لهم مهمة مع الانسان . ولذلك عندما رفض ابليس السجود . قال له الله تعالى :

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

(سورة ص)

قوله تعالى . . كنت من العالين ـ أى أنك كنت من الملائكة العالين . . الذين لم يشملهم أمر السجود . إذن فأمر السجود لآدم . . كأمر الله لنا بالسجود الى القبلة فى الصلاة . فنحن لا نسجد للقبلة ذاتها . . ولكننا نسجد لأمر الله بالسجود الى القبلة . . سجد الملائكة الذين شملهم أمر السجود لأمر الله سبحانه وتعالى . . ولكن ابليس رفض أن يسجد . وعصى أمر الله .

بعض الناس يقولون : أن ابليس لم يكن من الذين أمرهم الله تعالى بالسجود . لأن الأمر شمل الملائكة وحدهم . . وإبليس ليس ملكا . ولكنه من الجن . كما يروى لنا القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الكهف)

ونقول : ان كون إبليس من الجن هو الذى جعله يعصى أمر الله بالسجود . فلو أن ابليس كان من الملائكة ـ وهم مقهورون على الطاعة ـ كان لابد أن يطيع أمر الله ويسجد . ولكن كونه من الجن الذين لهم اختيار فى أن يطيعوا وأن يعصوا فذلك الذى مكنه أن يعصى أمر السجود . ولذلك فإن الذين يأخذون من الآية الكريمة ان إبليس كان من الجن . بأنه لم يشمله أمر السجود . نقول لهم : ان الحق سبحانه وتعالى قد اخبرنا عن جنس إبليس حتى نفهم من أى باب الى المعصية دخل . . ذلك أنه دخل من باب الاختيار الممنوح للانس والجن فى الحياة الدنيا وحدها ، ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون إبليس مقهورا على الطاعة ما كان يستطيع أن يعصى . ولكن معصيته جاءت من أنه خلق مختارا . . والاختيار هو الباب الذى دخل منه الى المعصية . هذه حقيقة يجب أن نفهمها . ولذلك يرد الحق سبحانه وتعالى على كل من سيخطر بباله ان امر السجود لم يشمل ابليس لكونه من الجن لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

وكان كفر إبليس وخلوده فى النار أنه رد الأمر على الآمر . وقال :

﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الاسراء)

وقد كان وجود إبليس مع الأعلى منه وهم الملائكة . مبررا أكبر للسجود .

فمادام قد صدر الأمر الى الأعلى بالسجود فإنه ينطبق على الأدنى .

وقد كان ابليس كما جاء فى الأثر يسمى طاووس الملائكة . . وكان يزهو بخيلاء بينهم . . وهذه الخيلاء أو الكبر هو الذى جعله يقع فى المعصية ، ولأن ابليس خلق مختارا . فقد كان مزهوا باختياره لطاعة الله . . قبل ان يقوده غروره الى الكفر والمعصية . ولذلك لم يكد يصدر الأمر من الله بالسجود لأدم . حتى امتنع ابليس تكبرا منه . . ولم يجاهد نفسه على طاعة الله . . فمعصية إبليس هى معصية فى القمة . لأنه رد الأمر على الآمر وظن أنه خير من آدم . . ولم يلتزم بطاعة الله ، ومضى غروره يقوده من معصية الى أخرى . فطرده الله من رحمته وجعله رجيما . ولما عرف إبليس أنه طرد من رحمة الله طلب من الله سبحانه وتعالى أن يبقية الى يوم الدين ، وأقسم إبليس بعزة الله أن يغرى بنى آدم . . حدد الأماكن التى يأتى منها الاغواء . فقال :

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

نلاحظ هنا أن الجهات بالنسبة للانسان ستة . اليمين والشمال . والامام والخلف وأعلى وأسفل ، ولكن ابليس لم يذكر الا أربعة فقط . أما الجهتان الأخيرتان وهما الأعلى والاسفل . فلا يستطيع ابليس أن يقترب منهما . أما الأسفل فهو مكان السجود والخضوع لله . وأما الأعلى فهو مكان صعود الصلاة والدعاء . وهذان المكانان لا يستطيع ابليس أن يقترب منهما .

وهكذا نرى أن إبليس لم يمتنع عن السجود فقط . وإنما رد الأمر على الآمر . وهذا أول الكفر . ثم بعد ذلك مضى فى غيه فتوعد آدم وذريته بأن يضلهم عن سبيل الله